مكانة العلم في الدعوة الإسلامية

د. محمد بن سمينة (*)

لقد حفلت مصادر الفكر الإسلامي بإبراز المكانة المرموقة التي يسمو لها العلم في منهج الدعوة الإسلامية، كما عنيت تلك المصادر ببيان مدى العناية التي توليها هذه الدعوة لتحرير العقل من قيود التقليد والجمود وإطلاق العنان له للنظر في آيات الله والتفكر في أسرار الكون و التزود بأدوات المعرفة لاستكشاف ظواهر ذلك الكون والانطلاق من ثم إلى أسمى مقاصد الإنسان المسلم في هذه الحياة وهي الأخذ بالأسباب طلبا للفوز برضى الله في الدارين.

ويمكن أن يدور الحوار في هذه الكلمة حول هذه المحاور:

أولا: ما بين الدين والعلم: يمكن القول إن الصلة بين الدين والعلم، بين الوحي والعقل بين الروح والمادة، من أبرز ما يميز منهج الشريعة الإسلامية من سمات، وقد نص القرآن الكريم والسنة المطهرة على ذلك في أكثر من آية، وأكثر من حديث، فكان الدين انطلاقا من هذين المصدرين جذوة الروح ونبراس القلب، وكان العلم سراج العقل ومشعل الفكر، وبتلاحم طرفي هذه المعادلة بين الدين والعلم في حياة الإنسان تتكامل قواه الفاعلة الخيرة ويتحقق رقيه وتكمل إنسانيته.

وقد أدرك المسلمون خلال مراحل صحة وعيهم وسلامة قواهم المدركة من العلل، أبعاد هذه التوجيهات الدينية، كما أدركوا في الوقت نفسه فعالية ذلك التلاحم بين الوحي والعقل لبناء الحضارة الإسلامية وانتظام سير مراحل التاريخ الإنساني عامة، فأقبلوا على مدارسة تراثهم الروحي والعقلي، يستنبطون منه أصول العلوم الدينية والعمرانية والكونية، ثم تطلعت أنظارهم إلى ما عند الأمم الأخرى من تراث فحذقوه ثم أضافوا إليه ما توصلوا إليه من إبداعات عبقريتهم وابتكار قرائحهم في مختلف ألوان المعرفة، مما

(*) أستاذ بكلية الآداب، جامعة الجزائر؛ للموضوع مراجع.

مكنهم من أن يشيدوا حضارة رائدة في المشرق وفي المغرب، أنارت بشعلتها دروب الفكر والعمل أمام الإنسانيـــة فأفادت من عطاءاتهم أمم كثيرة في أرجاء مختلفة من المعمورة «وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام بل قرون مدنيتهم، عربوا كتب الأمم إلى ما عندهم ونظروا وصححوا واستدركوا واكتشفوا، فأحيوا عصور علم من كانوا قبلهم، وأناروا بالعلم عصرهم ومهدوا الطريق ووضعوا الأسس لمن جاء بعدهـــم، فأدوا للنوع الإنساني بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة في حالها وماضيها ومستقبلها» [1]

ويوم أن أصاب الوهن صلتهم بأصول دينهم وفترت جذوة الروح في صدورهم واعتلت عقولهم بأدواء الجمود والجبريـــة، وتقطعت الأسباب بينهم وبين مصادر المعرفة الحقة، دار التاريخ دورته في حياتهم فهوت بهم نزواتهم إلى منحدر الأهواء الشخصية والنزعات الذاتية والتكالب على حطام الدنيا والانكباب على إشباع الغرائز والشهوات فاختل يومئذ ميزان قوتهم، وبدأ نجم حضارتهم في الأفول وسلطان دولتهم في الذبول، فلم تطل بهـــم الأيام حتى ذهب ريح قوتهم وانتهى بهم المآل إلى السقوط والانكسار، والانسحاب من ساحة الإبداع والعطاء وإثراء المعرفة والمدنية الإنسانية تاركين هذا المكان لغيرهم، ممن تمسكوا بالأسباب، وأخذوا بالسنن، ومضوا يرسمون على هدي ذلك بمضاء عزائمهم، وكد عقولهم، معالم الطريق على درب التقدم العلمي الحديث.

فما كان من هذه الجهود إلا أن تردد صداها في آذان جموع الهاجعين وهم في مضاجعهم ولكنهم ما كادوا يستيقظون حتى عاود جفونهم الكرى فرجعوا إلى ما كانوا عليه منذ قرون يغطون في سبات عميق، وكان يمكن أن يطول أمد هذا الهجوع لولا هذه الكوكبة ممن استشتهم العنايـــة الإلهية من ذلك، من رجال العلم والإصلاح، فسلمت قواهم المعنوية مما أصاب غيرهم من علل، وبقيت في صدورهم صبابة من نخوة، وجذوة من صحوة، فهبوا بذلك يصارعون الظلام ويتطلعون إلى النور من بين غياهب ليل بهيم. وقد هزت ضمائرهم تداعيات أوضاع ذلك الواقع المرير، فانكبوا على التفكير فيما وراء ذلك من أمراض وآفات وأقبلوا على سجلات التاريخ يقلبون النظر في صحائفها ويستنطقون وقائعها وأخبارها علهم يعثرون في طياتها على ما يرشدهم إلى مكامن الداء وأسباب الدواء فاهتدوا بعد جهد في التفكير وعناء في التنقيب إلى أن ما تعانيه الأمة من

وهن طال عليه الأمد، إنما مرده إلى جملة من العلل يأتي في مقدمتها: تفريطهم في جنب دينهم، قعودهم عن الأخذ بالأسباب، تقاعسهم عن السعي، زهدهم في طلب العلم، سيطرة آفات الجهل والتقليد والجمود على قواهم العقلية وقدراتهم النفسية.

ومما يمكن قوله في هذا الصدد أن هذه الأدواء -وإن كان بعضها على قدر كبير من الخطورة- ما كانت تستعصي على العلاج إذا ما أسعفت الظروف المصابين بها بأن يكونوا بين يدي فريق من أطباء النفوس، وقد أصيبت العرب في جاهليتهم بأشد من هذه الأمراض خطرا وقد شفاها الله منها بما أنعم عليها من أن هداها إلى الإسلام ووفقها إلى الاستبصار بما تدعو إليه تعاليمه من إخلاص القصد واستقلال الفكر وصدق العمل والأخذ بالسنن في الإقبال على الحياة وبذل الجهد الصادق لبلوغ أسمى مراتب المجد والكمال فيها.

ثانيا: الدعوة إلى الأخذ بالسنن والأسباب: قد كانت النداءات الأولى التي أطلقها رواد حركة النهضة الإسلامية في العصر الحديث ترتكز -إلى جانب سهر أصحابها على إعادة البناء الروحي للإنسان المسلم- على النهوض بالقدرات العقلية لهذا الإنسان وحضه على الأخذ بنصيبه من مختلف روافد المعرفة الإنسانية، ذلك أن الأمة التي يجثم الجهل على صدرها وتكبل قواها الوجدانية والفكرية أغلال التقليد، ليس من اليسير عليها أن تنهض من عثراتها أو تقوى على أن تتحرك من موقعها خطوة جادة إلى الأمام، بل أن تطمح إلى بلوغ مقاصدها في الانعتاق والتقدم.

وإن الخطوة الأولى التي يحسن بالأمة أن تستهل بها سيرها إيجابا، طلبا للعز والتقدم أو سلبا اجتنابا للضعف والتخلف، إنما يتحقق ذلك بحصول العوامل الموصلة إلى أحدهما والواقية من الآخر، ذلك أنه ما من مسبب إن خيرا أو شرا إلا وله باعث يحمل الإنسان عليه، كما أن للرقي والرخاء أسبابا يحسن التوسل بها إليهما، فكذلك للتخلف والشدة أسبابهما الباعثة عليهما لا يمكن اجتنابهما إلا باجتنابها: «ولله سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيئته في ملك الأرض وسيادة الأمم، يؤتي الملك من يشاء، ويترع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، من أخذ بنوع من تلك السن بلغت به وبلغ بها إلى ما قدر له من عز وذل وسعادة وشقاء، وشدة ورخاء...»[2] وإن أثر القرآن الكريم واضح في هذا النص روحا وصورة.

ويقول محمد العيد آل خليفة في معنى النص:

من يعش عن سنن الدنيا يعش هملا
ومن يجاوز حدود العقل يرتطم[3]

إن الأمة التي تريد أن تزدهر المدنية والمعرفة في ربوعها، وتحيا حياة العز والكرامة ينبغي أن تطلب ذلك بأسبابه ومن أبوابه، وإن لم تفعل فستظل -ولا تلومن إلا نفسها- حبيسة الجهل والتخلف لأنها هي التي أرادت بحبسها نفسها في عوامل ذلك عن طريق استسلامها لعلل التواكل والقعود والجمود والجبرية وغير ذلك من أسباب الارتكاس والانحطاط في حياة الأفراد والمجتمعات، إذ هي لم تحاول أن تحرك ساكنا لتحصل على أسباب العلاج بسعيها في تحرير العقل واستقلال الفكر والتحلي بالفضيلة والتجمل بالنظام والإقبال على العمل، وما إلى ذلك من أسباب القوة والسيادة والملك «إذ لا يكون ملك إلا بأسباب الملك، ولا تكون قوة إلا بأسباب القـــوة، ولا تكون السيادة إلا بأسباب السيادة»[4]

ويلحظ الباحث أن ابن باديس يقترب في هذا المعنى من الفكر الخلدوني[5]

وهكذا فإن الإنسان لا يتسنى له بلوغ ما يصبو إليه من مرام إلا بمدى ما يكون قد أعد لذلك -بعد توفيق الله- من الأسباب الموصلة لذلك، وإن هذه الأسباب مبسوطة بين أيدي جميع الناس برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فمن اجتهد في طلبها من هؤلاء والتوسط بها إلى مسبباتها أدرك غايته؛ ومن قعد عن ذلك وطلب مبتغاه بغير بواعثه ضل سبيله وخاب في مسعاه، وإن التاريخ خير شاهد على ذلك «إن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وإن من تمسك بسبب بلغ -بإذن الله- إلى مسببه، سواء أكان برا أو فاجرا، مؤمنا أو كافرا»[6]

ثالثا: دور العقل في كسب المعرفة: يحسن التذكير أن المسلمين لم ينحسر مد حضارتهم و لم يذهب ريح دولتهم و لم يسقطوا في قبضة غيرهم، إلا بسبب تفريطهم في السنن وتركهم العمل بالأسباب، وغني عن البيان أن من أبرز العوامل التي يحسن بالمرء تسخيرها للنهوض بواقعـــه والسمو بحياته، إنما هو العلم وإن الأداة المثلى لإدراك هذه الغاية، إنما هو العقل الذي هو«منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور في الشيء والرؤية في العين»[7].

فالعقل هو هذه الملكة التي ميز الله بها الإنسان وفضله بها على كثير ممن خلق تفضيلا بما يسر له من قدرة على النظر

والتقليد والاعتبار «يمتاز الحيوان عن الجماد بالإدراك ويمتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل، وعقله هو القوة الروحية التي يكون بها التفكير وتفكـــيره هو نظره في معلوماته التي أدرك حقائقها»[8]

ويتضح من النص ومن هذه العبارة تحديدا«وعقله هو القوة الروحية...» أن الإمام ابن باديس يرى أن العقل ليس هو العضو المادي أو الجوهر الفرد، وإنما هو الملكة الربانية اللطيفة المتعلقة بالقلب.

وإن أثر الروح الخلدونية تبدو جلية في النص ليس في المعنى فحسب، وإنما في المبنى كذلك، حتى لتكاد الحروف تتطابق كما يتلامح ذلك من خلال ما يقرره ابن خلـــدون في الموضوع بقوله: «كما كان الإنسان متميزا عن سائر الحيوانات بخواص اختص بها فمنها العلـــوم الحقائق التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات وشرف بوضعـــه عن المخلوقات»[9]

وقد أولت الديانة الإسلامية هذه الملكة الإدراكية عناية فائقة، لما لها من أهمية بالغة ولذلك دعت الإنسان إلى الاهتمام بما يحفظ عليه عقله ويحميه من علل التقليد وأدواء الجمود ويرقى بحياته دنيا وأخرى، ولأجل ذلك ما فتئ هذا الدين «يمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير»[10]

رابعا: الخلاصة: كانت طلائع النهضة المباركة في الجزائر، وفي غيرها من بلاد العالم العربي الإسلامي قد انطلقت من هذه القناعات نفسها، وعلى هذا الطريق ذاته باعتكاف أعلام الأمة على مشروعهم الإصلاحي الحضاري القائم على جملة من الركائز تأتي الدعوة إلى الاعتصام بتعاليم الوحي، والعمل على تحرير العقل، والأخذ بأسباب العلم على رأس ما تقوم عليه أسس ذلك المشروع.